

مكانة الحديث في الشريعة

الدكتور حسام الدين المنصوري

سابق رئيس، كلية معارف اسلامية، جامعة كراتشي

القرآن و السنة هما المصدران الاصيلان للشريعة الاسلامية فمكانة السنة اذن رفيعة عظيمة ذات أهمية كبيرة ولها قوة تشريعية ملزمة وعليها يقوم جزء كبير من كيان الشريعة الاسلامية. وليس للمسلم نجاح الدنيا والآخرة الا اتباع أوامرها واجتناب نواهيها والوقوف عند حدودها ونستطيع تبين ونوضح مكانتها فيما يأتي :

١. السنة مبينة للقرآن

فقد كلف الرسول ﷺ بمهمة تبين ما نزل الى الناس وقال تعالى: **وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** - (١) وقد قام رسول الله ﷺ باداء هذه المسؤولية المهمة خير قيام ، فأدى الامانة ، وبلغ الرسالة و بين المراد من آيات الله -

٢. السنة مفصلة لمجمل القرآن

كالأمر بالصلاة وجاء مجملًا لم يبين القرآن عدد ركعاتها ولا هيئتها ولا أوقاتها ، وكالامر بالزكاة ، جاء مطلقاً لم يحدد بالحد الأدنى الذي يجب فيه الزكاة ، ولم تبين مقاديرها ولا شروطها ، قال تعالى: **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** - (٢) وتأتى السنة المطهرة فتفصل عدد الصلوات ، وأوقاتها ، وعدد ركعاتها ، ومبطلاتها وتدل على شروطها وأركانها كما تفصل ذكر الاموال التي فيها زكاة والتي لازكاة فيها وتبين السنة النصاب الذي تجب فيه الزكاة ومقدارها ونسبتها. وكذلك كانت تقع كثير من الحوادث التي لم ينص عليها في القرآن ، فلا بد من بيان حكمها عن طريقة رسول الله ﷺ وهو مبلغ عن ربه وأدري الخلق بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومراميها. قال تعالى: **وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** - (٣)

وعن عمران بن حصين أنه كان جالساً ومعه أصحابه ، فقال رجل من القوم : لاتحدثونا الا بالقرآن- فقال له أذن- فدنا- فقال : أرايت لو وكلت أنت وأصحابك الى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً وصلاة العصر أربعاً والمغرب ثلاثاً تقرأ في اثنين ؟ أرايت لو وكلت أنت وأصحابك الى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً والطواف بالصفاء والمروة ؟ ثم قال : أى قوم ! خذوا عنا فانكم والله ان لاتفعلوا لتضلن- (٤)

وورد آيات القرآن محملة أمر طبعي ، لأن القرآن بالنسبة للمسلمين الدستور الذى يقرر لهم الأسس الفكرية والاجتماعية والسياسية والروحية الذى يجب أن يقيموا مجتمعهم عليها ويترك التفاصيل الجزئية للسنة-

٣. وفى السنة احكام عليها جمهور المسلمين

لم تأت فى القرآن تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها- عن ابى هريرة رض ان رسول الله ﷺ قال : لايجتمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها- (٥)

وحد شرب الخمر : عن أنس رض قال : جلد النبى ﷺ فى الخمر بالحديد والنعال وجلد ابو بكر اربعين- (٦)

٣. وفى السنة تخصيص لعموم محكم القرآن

ومن ذلك تخصيص الحديث : لايرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم- والآية : ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث- (٧)

فالآية تدل على أن كل والد يرث ولده ، وكل مولود يرث والده حتى جاءت السنة بأن المراد ذلك مع اتفاق الدين مع الوالدين والمولود دين ، وأما اذا اختلف الدينان فانه مانع من التوارث كما قال النبى ﷺ لايرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم- (٨)

٥. والقرآن

يحث المسلمين على اتباع السنة ويوجب على المسلمين ان يطيعوا الرسول ويجعل طاعة الرسول طاعة لله عز وجل قال تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله- (٩)

والقرآن يشجع الناس الى اسوة حسنة كاملة غير ناقصة وهى اسوة سيد الانبياء والمرسلين قال تعالى : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر- (١٠) وكما وجب

على الصحابة بأمر الله في القرآن اتباع الرسول وطاعته في حياته، وجب عليهم من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته.

أن النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم يقيد ذلك بزمن حياته، ولا بصحبته دون غيرهم، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم، وهي أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته، ولأن العلة أيضاً جامعة بين حياته ووفاته، إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئاً عن مُشرع معصوم أمر الله بامتثال أمره، فلا يختلف الحال بين أن يكون حياً أو بعد وفاته (١١)، وقد أرشد ﷺ إلى وجوب اتباع سنته حيث يغيب المسلم عنه حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا كتاب الله؟ قال: أجتهد برأى ولا آلو فضرب رسول الله صدره فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله (١٢) وقال تعالى: وما اتكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا- (١٣)

٢. إذا التفتنا إلى الأحاديث الثابتة

وجدنا فيها تصريح بمكانة السنة في الشريعة. فمن ذلك ما رواه امام البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ﷺ من أبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى- (١٤)

وحدث النبي ﷺ الصحابة والمسلمين من بعدهم على اتباع سنته بأخذ النواحي وذلك ما رواه ابوداؤد عن عرابض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله ﷺ فإن هذم موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدى فسيروا اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواحي وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة- (١٥)

فهذه هي مكانة الحديث وأهميتها ولا نستطيع نعمل على القرآن دون الحديث ولا نستطيع نفهم احكام القرآن، لأن القرآن محمل وفيه متشابهات. والحديث يفسر ويوضح احكامه كي يسهل على الناس تنفيذه. واخبر النبي ﷺ عن الرجال الذين يأتون بعده ويقولون بني وبينكم هذا الكتاب

مجلة معارف (الاسلاميه) جامعة كركوك

مارواه ابوداؤد عن المقداد بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : ألا انى اوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شعبان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه- (١٦)

عن علقمة أن امرأة من بنى اسد أتت عبدالله بن مسعود فقالت انه قد بلغنى أنك قلت ذيت وذيت والواشمة والمستوشمة- وانى قرأت ما بين اللوحين فلم أجد الذى تقول ، وانى لأظن على اهلك منها ، قال فقال لها عبدالله فادخلى فانظرى ، فدخلت فنظرت فلم تر شيئاً ، ثم خرجت فقالت لم أر شيئاً ، فقال لها عبدالله أما قرأت : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا- الآية- قالت بلى قال : قال فهو ذاك (١٧) ! قال الفضل بن زياد قال سمعت احمد بن حنبل وسئل عن الحديث الذى روى ان السنة قاضية على الكتاب قال ما احسر على هذا ان اقله ، ولكن السنة تفسير الكتاب وتعرف الكتاب وتبينه (١٨) وعن ايوب السخيتاني أنه قال اذا حدثت الرجل بالسنة فقال دعنا من هذا ، وحدثنا من القرآن فأعلم أنه ضال مضل- (١٩)

ولقد ظهرت الدعوة بأن السنة لا حاجة لها- وانه لا مكان لها فى مصادر الشريعة ، وأن القرآن وحده كاف ، وزعموا أن ما كان يصدر عن النبي ﷺ من اقوال سواء أصحت عنه ام لم تصح تدبير مؤقت للمجتمع يوم ذاك-

أذكرهنا قول الامام الشافعى قال : وسنة رسول الله من ثلاثة أوجه ، أحدها : ما أنزل الله فيه نص كتاب فسن رسول الله يمثل نص الكتاب-

والثانى : ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد بالجملة- وأوضح كيف فرضها عاماً أو خاصاً ، وكيف أراد أن يأتى به العباد-

والثالث : ما سن رسول الله ﷺ مما ليس فيه نص كتاب ، فمنهم من قال جعله الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب- ومنهم من قال لم يسن سنة قط الا ولهذا أصل فى الكتاب كما كانت سنته ، كتيبى عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ماسن فى البيوع وغيرها من الشرائع- لأن الله تعالى ذكره قال : لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم- وقال تعالى : وأحل الله البيع وحرم الربا- فما أحل وحرم فانما بين فيه عن الله كما بين فى الصلاة ومنهم من قال : بل جاء به رسالة الله فأثبتت

سنته بفرض الله تعالى- ومنهم من قال : ألقى في روعه كل ماسن وسنته الحكمة التي ألقى في روعه عن الله تعالى؟ (٢٠)

تدوين السنة :

يتردد على السنة بعض العامة ، ويروج ذلك نفر من المغرضين أن السنة لم تدون الا بعد مضي قرن من الزمان ، ويعتمدون في ذلك على أدلة واهية لاحجة لهم بها- (٢١)

فأولا نحن ننظر كيف كان الصحابة يتلقون سنة رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يعيش بين أصحابه دون أن يكون بينه وبينهم حجاب ، فقد كان يخاطبهم في المسجد والسوق والبيت والسفر والحضر ، وكانت أفعاله وأقواله محل عناية منهم وتقدير حيث كان رسول الله ﷺ محور حياتهم الدينية والدنيوية ، منذ أن هداهم الله به وأنقذهم من الضلالة والظلام الى الهداية والنور ، ولقد بلغ من حرصهم على تتبعهم لأقواله وأعماله ، أن كان بعضهم يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم ، فهذا عمر بن الخطابؓ يحدثنا عنه البخاري بسنده المتصل اليه ، يقول : كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا انزلت جثته بخير ذلك اليوم وإذا انزل فعل مثل ذلك- وليس هذا الا دليلاً على نظر الصحابة الى رسول الله ﷺ نظرة اتباع واسترشاد برأيه وعمله ، لما ثبت عندهم من وجوب اتباعه والنزوله عند أمره ونهيه ، ولهذا كانت القبائل النائية عن المدينة ترسل اليه بعض افرادها ليتعلموا أحكام الاسلام من رسول الله ﷺ ثم يرجعون اليهم معلمين ومرشدين- (٢٢) اذا رأينا الى كتابة الحديث فوجدنا لم يرون الحديث في عهد النبي ﷺ كما دون القرآن ، فانا نرى أن رسول الله ﷺ اتخذ كتابة للوحي يكتبون آيات القرآنية عند نزولها ، ولكنه لم يتخذ كتابة يكتبون ما ينطق به من غير القرآن- بل قد وجدنا أحاديث كثيرة تنهى عن تدوين الحديث- (٢٣)

فنذكر ما روى من كراهية الكتابة : عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ، ولا حرج- (٢٤) رواه مسلم

وهذا الحديث أصح ما ورد عن رسول الله ﷺ في هذا الباب- وحديث آخر أبي سعيد الخدري قال : استاذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا- (٢٥)

وروى عن عن أبي هريرةؓ أنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال : ماهذا الذي تكتبون ؟ قلنا : احاديث نسمعها منك- قال : كتاب غير كتاب الله ؟ أتدرون ؟ ماضل الأمم

قبلکم الا بما اکتبوا من الکتب مع کتاب اللہ تعالیٰ۔ (۲۶)

ان کراهة كتابة الأحادیث انما كانت في ابتداء كيلا تختلط بكتاب الله تعالى، فلما وقع الامن عن الاختلاط جاز كتابته۔ فذكرها الاحاديث التي جاز كتابة الحديث ونسخت الاحاديث التي فيها كراهة الكتابة۔ فمن هذه الاحاديث ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما۔ عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال: ان الله حبس عن مكة القتلى أو الفيل شك أبو عبد الله وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين۔ الا وانها لم تحل لأحد قبلي، ولم تحل لأحد بعدي۔ ألا وانها حلت لي ساعة من نهار الا وانها ساعتي هذه حرام: لا يختلي شوكرها، ولا يعضد شجرها، ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد فمن قتل فهو بخير النظرين: اما ان يعقل، واما ان يقاد اهل القتل۔

فجاء رجل من اهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله۔ فقال: اكتبوا لأبي شاة۔ (۲۷)
وابو هريرة يقول: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا يكتب۔ (۲۸)

عن أبي هريرة قال: كان رجل من الانصار يجلس الى رسول الله ﷺ فيسمع من النبي الحديث فيعجبه ولا يحفظه۔ فشكى ذلك الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ اني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا احفظه۔ فقال رسول الله ﷺ: استعن بيمينك وأوماً بيده الخط۔ (۲۹)

عن عبد الله بن عمرو قال: كنت اكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك الى رسول الله ﷺ فأوماً باصبعه الى فيه فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج من الا حق۔ (۳۰)

ولو نظرنا في هذه الاحاديث لوجدنا انها متأخرة زمناً، فأبو هريرة من الذين دخلوا في الاسلام في وقت متأخر، اذا اسلم في السنة السابعة للهجرة، فقدم المدينة ورسول الله ﷺ في خيبر، وكذلك فان حديث أبي شاة كان في السنة الثامنة، اذا أن الفتح كان فيها، مما يؤيد نسخ حديث أبي سعيد المتقدم۔

ويقول بعضهم: ان النهي الوارد في حديث أبي سعيد كان لعامة الناس فيمن ان يكون الرسول

ﷺ اذن بالكتابة لمن كان يثق بضبطه ودقته، وعدم خلطه بين القرآن والحديث كعبدالله بن

عمرو۔ (۳۱)

وقد اراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الاحاديث المتضاربة، قالوا: ان النهي عن الكتابة كان

وقت نزول القرآن، خشية التباس القرآن بالحديث۔ (۳۲)

☆☆☆

المصادر والمراجع

- ١- سورة النحل، الآية ٤٤
- ٢- سورة النور، الآية ٥٦
- ٣- سورة النساء، الآية ٦٥
- ٤- الكفاية، ص: ٥١، الخطيب البغدادي - المكتبة العلمية
- ٥- فتح الباري، ج: ٩، ص: ٢٠٠ حديث رقم ٥١٠٩ - دارالسلام
- ٦- فتح الباري، ج: ١٢، ص: ٨٠ حديث رقم ٦٧٧٦ دارالسلام الرياض
- ٧- سورة النساء، الآية ١١
- ٨- فتح الباري، ج: ١٢، ص: ٦١ حديث رقم ٦٧٦٤ - دارالسلام الرياض
- ٩- سورة النساء، الآية ٨٠
- ١٠- سورة الاحزاب، الآية ٢١
- ١١- السنة ومكانتها السباعي الدكتور مصطفى، دارالسلام
- ١٢- سنن أبي داود السجستاني، أبو داود سليمان بن اشعث، حديث: ٣٥٩٧ دارالسلام، جامع الترمذی: لاحكام، حديث رقم ١٣٢٧ دارالسلام
- ١٣- سورة الحشر، الآية ٧
- ١٤- فتح الباري العسقلاني ابن حجر احمد بن علي، ج: ١٣، حديث: ٧٩٨٠ دارالسلام
- ١٥- سنن أبي داود السجستاني، أبو داود سليمان بن اشعث، كتاب السنة، حديث: ٤٦٠٧ دارالسلام
- ١٦- سنن أبي داود السجستاني، أبو داود سليمان بن اشعث، كتاب السنة، حديث: ٤٧٠٤ دارالسلام
- ١٧- فتح الباري العسقلاني ابن حجر احمد بن علي، ج: ١٠، حديث: ٥٩٣١، ومسلم القشيري أبي الحسين مسلم بن حجاج، حديث: ٨٨٧٣ دارالسلام
- ١٨- الكفاية، البغدادي، الخطيب ابوبكر احمد بن علي، ص: ١٥ المكتبة العلمية
- ١٩- السابق، ص: ١٦
- ٢٠- مفتاح الجنة: السيوطي، الهافظ جلال الدين، اهداء الجامعة لاسلامية، سنة ١٩٧٩ ء
- ٢١- الحديث النبوي، ص: ٣٢ الصباغ، محمد، المكتب الاسلامي، سنة ١٩٧٧ ء
- ٢٢- السنة ومكانتها، السباحي الدكتور مصطفى، ص: ٦٤، دارالسلام سنة ٢٠٠٨ م
- ٢٣- فجر الاسلام: احمد أمين، ص: ٢٠٢ دارالكتب العلمية، مطبوعة ٢٠٠٦ م
- ٢٤- صحيح مسلم القشيري مسلم بن حجاج، رقم الحديث ٧٥١٠، دارالسلام

- ۲۵- جامع الترمذی، الترمذی ابو عیسیٰ محمد بن عیسیٰ، رقم الحديث ۶۶۶۵ دارالسلام
- ۲۶- السنة قبل التدوين، الخطيب محمد عجاج، ص: ۳۰۳، مكتبة وهبة سنة ۱۹۶۳ء
- ۲۷- فتح الباری، العسقلانی ابن الحجر احمد بن علی، ج: ۱، حديث رقم: ۱۱۹ دارالسلام وجامع الترمذی، الترمذی ابو عیسیٰ محمد بن عیسیٰ، رقم الحديث ۲۶۶۷، دارالسلام
- ۲۸- فتح الباری، العسقلانی ابن الحجر احمد بن علی، ج: ۱، حديث رقم: ۱۱۳ دارالسلام
- ۲۹- جامع الترمذی، الترمذی ابو عیسیٰ محمد بن عیسیٰ، رقم الحديث ۲۶۶۶ دارالسلام
- ۳۰- سنن ابی داؤد السجستانی، ابو داؤد سليمان بن الاشعث، رقم الحديث ۳۶۴۶ دارالسلام
- ۳۱- الحديث النبوی ۳۶، الصباغ، محمد، المكتب الاسلامی، سنة ۱۹۷۷ء
- ۳۲- فجر الاسلام، احمد أمين، ص: ۲۰۳، دارالکتب العلمیة سنة ۲۰۰۶ء